حوار الأجيال

د. مصطفى الفقى

دار الشروق

تقديم

فكرت طويلاً قبل إصدار هذا الكتاب الذي يجمع بين دفتيه بعض المقالات التي كتبتها وعدداً من المحاضرات التي ألقيتها، على امتداد سنوات تزيد على ربع قرن كامل وكان مبعث تفكيري وربما مصدر قلقي هو ذلك التحول الذي يطرأ على فكر الإنسان منذ صدر شبابه حتى سنوات اكتمال نضوجه.

ولقد رأيت في هذا التحول، منذ منتصف الستينات حتى قرابة منتصف التسعينات، منحنى للتغبير في التوجه الفكري، والانتماء العقائدي، والتكوين الشخصي، وحدثت نفسي بأن هذه هي طبيعة الأمور، فكما أن الأبدية للخالق وحده، فإن التغيير هو طبيعة المخلوق، ولا ينبغي أن يبرأ إنسان من تاريخه أو يتنكر لفترة معينة من حياته، إذ إن رد الأشياء إلى أصولها، ونسبة الأمور إلى ظروفها تعفي صاحب الفكر من أن ينسلخ عن جلده أو يلفظ ماضيه، خصوصاً إذا لم يكن في ذلك الماضي ما يعيب أو ما يستحق الإعتذار عنه.

فالإنسان في كل مرحلة هو ابن زمانه ومكانه، ونتاج بيئته وظروفه، لذلك فإنه من العسير أن نتجه إلى تقييم كتابات الستينات بمعايير التسعينات، فالدنيا قد تغيرت، والأمور قد تبدلت، والنظم قد تحولت، لذلك فإنه يهمني أن أسجل بداية عدداً من الملاحظات في مقدمة هذا الكتاب حتى نقف ـ القارىء وأنا ـ على أرضية مشتركة وباتفاق واضح لا يقبل التأويل أو يخضع لاجتهادات في التفسير، وهذه الملاحظات هي:

أولاً: لقد اقترنت سنوات دراستي الجامعية في بداية الستينات بفترة الحلم القومي الذي تجسد في زعامة جمال عبد الناصر، فكراً وفعلاً، فكنا نكاد نكون جميعاً تحت تأثير «كاريزما» زعامته.. حتى أولئك الذين كانوا نزلاء سجونه لأسباب تتصل بقضايا الفكر والرأي، كانوا من المؤمنين به، والمعترفين بأنه يمثل لهم ولأمتهم همزة الوصل بين أمجاد الماضي وأحلام المستقبل.

وكنت في ذلك الوقت شاباً يدور عمره حول العشرين، مشاركاً في الحركة الطلابية والشبابية بمستوياتها القيادية، نلوك في الصباح أحلاماً قومية، ونتغدى في الظهيرة بشعارات وطنية، ونمضي المساء في مناقشات فكرية... عالم مختلف... امتزجت فيه أحلامنا الوردية بضجيج المعارك والمواجهات التي خاضها عبد الناصر على جبهة عريضة في الداخل وفي الخارج، أملاً في غد أفضل ومستقبل واعد.

يذكر الجميع كيف كانت خطب عبد الناصر بمثابة رسائل شخصية من الزعيم إلى كل فرد بحيث يرضى بعدها الغاضب، ويستبشر اليائس، ويتحول اللوم له إلى رضا عنه وحب فيه، وتلك دائماً هي المغالطة البشرية التي يصنعها سحر الزعيم وبصمات أفكاره وشعاراته ونداءاته.

في تلك الفترة دخلنا جميعاً في واحدة من أهم مراحل تاريخنا وأكثرها تأثيراً في حاضرنا ومستقبلنا، لا أسميها غيبوبة الوهم ولا نشوة النصر، ولكني أسميها سنوات الحلم الضائع والأمل المفقود والمجد الذي لم يكتمل.

ثانياً: إن المرء حين يتابع كيف كان يفكر في مرحلة معينة، ماذا قرأ.. وماذا كتب.؟ فإنه يفعل ذلك في عملية استرجاع واعية، تجعله أقدر من أي وقت مضى على تقييم ما فعل، ثم تصويب النظرة، وتأمل الفكرة، فما بالنا بالذاكرة القومية كلها، حيث تكون المراجعة الشاملة والتنقيب في الماضي أموراً لازمة للتهيؤ للمستقبل، فإذا كانوا قديماً قد قالوا: «**إن ذاكرة العوام لا تزيد عن ثلاثة أعوام**» فإن ذلك القول لا ينسحب على الأحداث الجسام والوقفات الهامة في تاريخ الأمم والشعوب.. إن جيلنا لا زال يذكر إنجازات الثورة في نهاية الخمسينات ومطلع الستينات، وأغاني أعيادها الوطنية، واحتفالاتها السنوية، وخطب عبد الناصر التي يلهب بها المشاعر ويشعل الحماس ويدفع الناس دفعاً نحو أمل سوف يتحقق، ورخاء يتقدم نحوهم حتى لو بدت الرؤى بعد ذلك سراباً، فقد كان الأمل في الوصول إلى منابع النهر ومصادر المياه هو المسيطر على أحلام الجماهير وآمال الشباب للخروج من صحراء التخلف ووطأة الفقر والتركة الثقيلة من الماضي القريب والبعيد.

إن جيلنا لا زال يذكر مؤتمر عبد الناصر الصحفي في أواخر مايو ١٩٦٧، ويذكر أيضاً خطاب النكسة الذي أعلن فيه القائد التنحي تحت ظلام القاهرة،

والقذف العشوائي للمدفعية المضادة في ظروف بالغة القسوة، ولحظات شديدة التعاسة لا نكاد نجد لها نظيراً في تاريخنا القومي كله، ولا زلنا نذكر أيضاً رقصة أحد أعضاء «مجلس الأمة» في مبنى البرلمان المصري احتفالاً بعودة الزعيم وعدوله عن قرار التنحي، بينما لا زالت دماء الآلاف من شباب مصر تروي رمال سيناء بعد أن راحوا ضحية حشدهم دون تنظيم، وتعبئتهم بلا هدف، وتركهم في الصحراء بلا غطاء جوي.

وسوف تظل سنوات النكسة وهمومها الثقيلة كابوساً يؤرق ثلاثة أجيال متتالية من أبناء الشعب المصري ويبدو عمرها مسروقاً وذكرياتها مبعثرة، وهو أمر لا زالت آثاره واضحة حتى اليوم، فلقد كان ثمن الهزيمة باهظاً، وكان الجرح عميقاً، حيث تحطم الكبرياء المصري، وتهاوت المثل، وضاعت القدوة، فكان طبيعياً أن تعرف مصر بعدها بسنوات قليلة مظاهر العنف السياسي، والإحباط الوطني برغم انتصار ١٩٧٣ الذي رد الاعتبار، ورفع جانباً كبيراً من هموم النكبة، وأراح الضمير القومي من عذابات الإحساس بالذنب، وعقدة الشعور بالنقص التي كادت تطيح بمستقبل الوطن بعد أن لطخت حاضره، وشوهت ماضيه.

ثالثاً: لقد كانت الفترة التي أعقبت نكسة ١٩٦٧، وسنوات حرب الاستنزاف الثلاث، بمثابة فترة ألم عميق وقلق زائد، هاجر فيها سكان ثلاث محافظات تطل على قناة السويس إلى العاصمة والمدن والقرى، حيث أصبحت مدنهم ميادين قتال للتراشق اليومي، والطلعات الجوية المتبادلة بين الجانبين.

وكنت في تلك السنوات دبلوماسياً صغيراً في وزارة الخارجية المصرية، وأتابع محاولات الوصول إلى اتفاق سياسي لإزالة آثار العدوان، وأرصد في دهشة انحياز العالم لإسرائيل «الدولة الصغيرة التي ظل العرب يهددونها لسنوات»! ثم دخلوا معها في مواجهة عسكرية انتهت بهزيمتهم واحتلال أراضيهم، وخرجت مظاهرات غاضبة من شباب الجامعات تطالب بمحاسبة المسئولين ومعاقبة القادة داخل القوات المسلحة وخارجها ممن كانوا يقفون وراء أسباب الهزيمة وظروف النكسة، ورد عبد الناصر على الجماهير الغاضبة ببيان ٣٠ مارس، محاولاً فيه تصحيح الأوضاع، والحديث عن دولة المؤسسات والتبشير بالخروج من دولة الرأي الواحد والقرار المنفرد.

وانقطعت صلتي بالعمل السياسي العام، وانصرفت لاستكمال دراستي لدرجة

الدكتوراه، إلى جانب عملي في السلك الدبلوماسي الذي خدمت به سنوات في بريطانيا ثم الهند، حيث كان عصر الرئيس السادات هو عصر التحولات الجذرية والتوجهات الجديدة في السياستين الخارجية والداخلية لمصر، فبعد أن خاض حرب ١٩٧٣ ـ وهي التي تحسب له بكل المقاييس، وتضاف إلى رصيده الوطني بكل المعايير ـ اتجه إلى تغيير خريطة المجتمع المصري تحت شعار الانفتاح الاقتصادي، ثم إعادة صياغة السياسة الخارجية بالاقتراب من الغرب، خصوصاً الولايات المتحدة الأمريكية بعد طرد الخبراء السوفيت، بحيث مضى ذلك كله متوازياً مع الاتجاه نحو التعددية السياسية في الداخل، ورفع الحراسات وإطلاق قدر من الحريات.. فإذا كان عبد الناصر هو رمز الصلابة الوطنية والكبرياء القومي، فإن السادات أصبح في ضمير أمته رمز المصلحة الوطنية والرشد القومي، والاتجاه نحو الواقعية السياسية، والابتعاد عن نظرية الفعل ورد الفعل، وتصرف في كثير من المواقف باقتدار رجل الدولة وليس أبداً بشموخ بطل الثورة...

ثم انصرفت جهودي بعد ذلك ـ عبر أعوام السبعينات والثمانينات ـ إلى العمل الدبلوماسي والأكاديمي في وقت واحد وبدأت أنشر عدداً من المقالات في الصحف والدوريات سوف يجد القارىء اختيارات منها على صفحات هذا الكتاب[١] وسوف يكتشف أن الفارق الزمني، والمناخ السياسي يتركان أثرهما على الكاتب، ويطبعان بصمتهما على سطوره، مهما كان لونه الفكري ومستواه الثقافي.

رابعاً: لقد عرفت الإنسانية عبر تاريخها الطويل كل أنواع الصراعات بدءاً من الصراعات القومية وانتهاء بالصراعات الأيديولوجية، مروراً بصراع الطبقات وصراع المصالح، وغيرها من أشكال الصراع وألوانه، ولكن يبقى من بينها جميعاً صراع الأجيال الذي يعكس وحده سنة التطور، وفلسفة الوجود، وتقدم الحياة: فهو الصراع بين القديم والجديد، بين الحداثة والعراقة.. إذ إن اندفاع البشرية إلى

---

(١) باستثناء عدد من المقالات والمحاضرات التي تدور حول العلاقة بين الدين والسياسة نشر معظمها في كتاب «الإسلام في عالم متغير» الذي صدر عن الهيئة العامة للكتاب، وعدد آخر من الأبحاث والدراسات حول العروبة والقومية صدرت حديثا عن دار الشروق للنشر في كتاب «تجديد الفكر القومي» كذلك فإن كل اللقاءات الفكرية مع رواد معرض الهيئة العامة للكتاب تم جمعها في كتاب مستقل عن الهيئة: بعنوان «لقاء الأفكار».

الأمام يولد بالضرورة من الإحتكاك الأزلي بين حماس الشباب وحكمة الشيوخ، فصراع الأجيال، هو دون غيره من الصراعات، صراع مشروع له أسبابه ومعه مبرراته، لأنه يمثل العلاقة بين البشر والزمن.. بين الإنسان وحركة التاريخ.. وكلها أمور تمارس تأثيرها على الإنتقال بين الثوابت والمتغيرات، فبينما ترتبط الأولى بمعطيات الوجود وحقائق الحياة، تنصرف الثانية إلى الآثار المستمرة للفكر الإنساني والإبداع البشري، ومن التزاوج بين الإثنين تنطلق شرارة التطور، وتولد إرهاصات المستقبل، وكلما نظر الإنسان إلى ماضيه وجد أن هذا الإحتكاك بين ثوابته الشخصية، وتحولاته الفكرية، هو مبعث التطور فيه ومصدر التغيرات في ذاته.

خامساً: لقد أردت لهذه الصفحات أن تكون «**حوار الأجيال**» لأنها تعكس بدقة ذلك الصراع المحتدم بين الفكر والإنسان... بين الرؤية والعصر... وحقيقة الأمر أن في مصر صراعاً حقيقياً بين الأجيال، ولعل هذا النوع من الصراع ـ بخلاف كل الصراعات الأخرى ـ يمثل ظاهرة صحية لا تدعو إلى القلق ولكنها تحتاج إلى الاهتمام، لا تثير الخوف ولكنها تتطلب أسلوباً جديداً في التعامل، إن النسبة الكبرى من سكان مصر هم من الشرائح الأصغر سناً بين معدلات الأعمار، ومعظمهم من الشباب وطلائع الأجيال الجديدة، لذلك فإن مخاطبتهم تعني بالدرجة الأولى مخاطبة غالبية أبناء مصر، وتعني أيضاً توجيه رسالة مباشرة إلى أولئك الذين لم يشهدوا عصراً نتحدث عنه، ولم يعيشوا ظروفاً جاءت فيها هذه السطور، ولعل ذلك يبدو واضحاً من حالة التباين الشديد والاختلاف الواضح لدى هذه الأجيال الجديدة تجاه زعامات مصر السابقة وأسلوب تقييمها.

إن العصر الملكي عند معظمهم هو فساد كامل، وانحراف لم يتوقف، وعصر عبد الناصر هو عصر الدكتاتورية والسجون والمعتقلات، وعصر السادات هو عصر الانفتاح الاستهلاكي والتسيب والسطو على المال العام، بينما واقع الأمر يعكس صورة مخالفة لهذه التصورات المشوهة والمنقولة بلا وعي لغزو عقول أبنائنا، وتسميم أفكار شبابنا، فالعصر الملكي مثلاً، لا يخلو من إيجابيات تدور حول مناخ ديمقراطي نسبي، وحياة برلمانية لا بأس بها، ونمو في مؤسسات الاستنارة، وازدهار للحركة الفكرية والأدبية، كذلك فإن عصر عبد الناصر هو عصر التحرر الوطني، وتأميم قناة السويس، وبناء السد العالي، وإنشاء الصناعات

الثقيلة، كما أن عصر السادات هو عصر استعادة الحريات، والتركيز على دولة المؤسسات، وخوض معركتيْ تحرير الأرض وبناء السلام. . وهكذا يجب أن يدرك شبابنا، أنه كما أن لكل عهد سلبياته، فإن لكل عصر أيضاً إيجابياته، ولا يجب أن نتحدث دائماً عن وجه واحد للعملة أو النصف الفارغ من كوب المياه، فالسياسة صعود وهبوط. . نجاح وإخفاق. . والشعوب تتعلم من آلامها، والأمم تصنعها المحن. . وتصهرها التحديات.

سادساً: لقد أردت من نشر هذه المقالات والدراسات والمحاضرات كما هي دون تعديل فيها، أو تغيير لأفكارها وأسلوبها، أن تكون بمثابة صور حية نابضة لا زيف فيها، ولا رتوش عليها، حتى ولو كان ذلك بمنطق «**إنني لا أكذب ولكنني أتجمل**»! فقد أردت أن يعيش القارىء ظروف ما كتبت. وتوقيت ما تحدثت، ولكن عليه فقط أن ينسب الكتابة أو الحديث إلى الملابسات التي نشرت فيها، أو قيل خلالها.

. .لقد كتبت مثلاً في منتصف الستينات، أحاديث إيجابية عن الاشتراكية في «مجلة الشباب العربي» ـ وهي التي كانت تتوجه إلى جماهير الشباب في الداخل والمبعوثين في الخارج ـ برغم كل ما يرد على الفكر الاشتراكي الآن من انتقادات حادة وملاحظات قد يكون لها ما يبررها، خصوصاً في السنوات الأخيرة التي انهارت فيها رموز الاشتراكية، والنظم الشيوعية. . إلا أن الحديث وقتها ـ منذ قرابة ثلاثين عاماً ـ كان له بريقه لدى شاب لم يتجاوز العشرين إلا قليلاً وطبول النظام تدق من حوله صباح مساء. . تتحدث عن الكفاية والعدل والحرية والاشتراكية والوحدة، وتحذر من مخاطر الصهيونية والإمبريالية والاستعمار.

. . كذلك فلقد جاءت بعض مقالات كتبتها في عصر السادات تعبيراً عن واقع تلك المرحلة وظروفها، والتطورات السريعة على الساحة العربية القومية والخريطة الاجتماعية المصرية. . حيث تركزت آمال الملايين في الرخاء بعد تحقيق السلام، والرفاهية عند توقف الحروب، وكانت تلك هي الآمال الواسعة للجماهير العريضة في عصر حاكم كانت لديه خلفية سياسية واسعة وأبعاداً تاريخية معروفة.

فإذا جئنا إلى عصر الرئيس مبارك، فإنني أجد لزاماً عليَّ ـ لكي أكون واضحاً وأميناً ـ أن أقول صراحة إن كثيراً مما قلت في محاضرات عامة كان مقيداً بقيود

موقعي في «مؤسسة رئاسة الجمهورية»، برغم تزايد هامش الحرية المتاح للآخرين خارج المواقع.. وبعيداً عن المناصب، كذلك فإن حسابات كثيرة كانت تفرض نفسها على حدود حركتي لاعتبارات تتصل بقربي من صانع القرار، واطّلاعي وقتها على كثير من مجريات الأمور.

وهكذا يكون المرء دائماً، ابن ظروفه ونتاج المواقف من حوله، وكلها اعتبارات أضع القارىء فيها معي منذ البداية، حتى يرى تأثير مظلة الدعاية القومية، والحماس الوطني على شاب في الستينات، ثم آثار التحولات الضخمة على «دبلوماسي» في السبعينات، وقيود الموقع على مسئول في الثمانينات.

ولكن يبقى الخط العام قاسماً مشتركاً، يؤكد دائماً أنني قلت ما آمنت به، وعبرت عمَّااقتنعت بوجوده.. في حدود طاقة البشر بكل ما يعتريها من حماس وفتور... من قلق وخوف... من مشاعر وأحاسيس لا يخلو منها إنسان، ولا يتجاوزها إلا الملائكة.

د. مصطفى الفقي

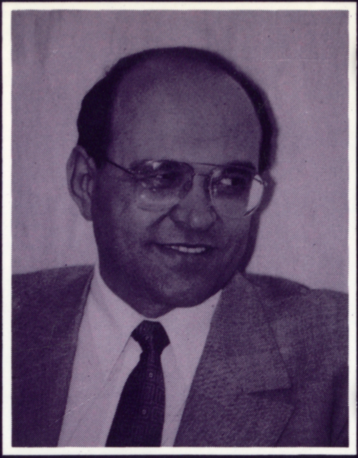

الدكتور / مصطفى الفقى

* تخرج في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ـ جامعة القاهرة عام ١٩٦٦.
* دبلوماسي في وزارة الخارجية المصرية منذ عام تخرجه، وخدم في سفارتي مصر لدى بريطانيا والهند كما تولى منصبي أمين عام المجلس الاستشاري للسياسة الخارجية ومدير معهد الدراسات الدبلوماسية.
* حاصل على دكتوراه الفلسفة في العلوم السياسية من جامعة لندن عام ١٩٧٧.
* عمل سكرتيراً للسيد رئيس جمهورية مصر العربية للمعلومات في الفترة من ١٩٨٥ إلى ١٩٩٢.
* له عشرات المقالات باللغتين العربية والإنجليزية في الدوريات العربية والأجنبية.
* عضو في جميع الجمعيات المتصلة بالشئون السياسية والدولية ودراسات الشرق الأوسط في القاهرة.
* قام بالتدريس في الجامعة الأميركية بالقاهرة لمدة خمسة عشر عاماً (٧٨ ـ ١٩٩٣)، وممتحن خارجي للدرجات العلمية العليا بالجامعات المصرية.
* حصل على الجائزة الأولى «في المقال السياسي للشباب» من المجلس الأعلى للعلوم والفنون والآداب عام ١٩٦٦.
* عضو المجلس الأعلى للثقافة (لجنة العلوم السياسية).
* شارك في اعداد وتاليف الموسوعة القبطية (١٩٩٠) وموسوعة الشروق (١٩٩٣).

هذا الكتاب

«حوار الأجيال» هو همزة الوصل بين الأزمنة والعصور.. كما أن «صراع الأجيال» هو قوة الدفع البشري إلى الأمام.. فالتقدم الإنساني وليد التزاوج بين حماس الشباب وحكمة الشيوخ.. وفي هذا الكتاب يجمع مؤلفه نخبة من كتاباته في ثلاثة عهود سياسية، ولفترة تزيد عن ربع قرن من الزمان (١٩٦٦ ـ ١٩٩٣) محاولاً اكتشاف الخيط الرفيع الذي يحدد مسار الفكر في ظل نظام متطور ومناخ مختلف، ويربط ما بين صفحات المقدمة والخاتمة ليؤكد في النهاية أن الإنسان ابن عصره ونتاج بيئته، وأن تقييم الكلمة يجب أن يتم في أطار الظروف التي أحاطت بها لأن ذلك يعفي صاحبها من أن ينسلخ عن جلده أو يلفظ ماضيه، خصوصاً إذا لم يكن في ذلك الماضي ما يعيب أو ما يستحق الاعتذار عنه..

.. إن هذا الكتاب تصوير صادق لحقبة من العمر تمتد من صدر الشباب حتى سنوات اكتمال النضوج لتثبت حقيقة واحدة وهي أنه إذا كانت هناك تعددية في الرؤية إلا أن هناك دائماً وحدة في الانتماء.. فالإنسان هو ابن زمانه ومكانه.. هكذا كان منذ الأزل وهكذا سوف يبقى إلى الأبد...

دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤

بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣